ماذا لو سحب بلفور وعده؟

تمكين
TAMKEEN
KNO SCHOOLS
EMPOWERING HUMANITY
360
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY
KNO SMART SCHOOLING

ماذا لو سحب بلفور وعده؟

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية
رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

في مكتبه المظلم بوزارة الخارجية البريطانيّة، يجلس آرثر بلفور وهو يحملق في الرسالة التي وقّعها قبل ساعات، الحبر لم يجفّ بعد، والكلمات التي ضمّنها خطابه ما زالت تتراقص أمام عينيه كأشباح قادمة من المستقبل، فجأة... تجمّدت يده على القلم، ورأى في خياله وجوه أطفال لم يولدوا بعد، رأى أطفالاً سيُشرّدون بسبب هذه الكلمات، ورأى قرى ستُمحى، وأشجار زيتون ستُقتلع، ودموع أمهات ستُسكب على أبواب بيوت لن تُفتح لهنّ مرة أخرى..

ولكنّه صحا فزعاً من غيبوبة إنسانيّة لحظيّة، من لحظات غُيّب فيها ضميره وعقله وكلّ ما فيه من تفكير، وأصابته هزّة وعي جعلته يمسك بالورقة ويمزّقها إلى أشلاء، ويخطّ من جديد ورقة أخرى، بدأها ب:

"عزيزي اللورد روتشيلد،

يسرّني كثيراً أنْ أنقل إليكم، نيابة عن حكومة جلالته، الإعلان التالي المتعلّق بالتّعاطف مع التطلّعات الصهيونيّة، والذي عُرض على الحكومة ونال موافقتها، حيث إنّ حكومة جلالته، بعد تأمّل عميق في عواقب هذا القرار على الشعوب المحليّة، تقرّر عدم دعم إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، إذ تعتبر ذلك انتهاكاً صارخاً لحقوق السكّان الأصليّين الذين عاشوا على هذه الأرض لقرون، وتؤكّد الحكومة البريطانية التزامها الكامل بحماية الحقوق السياسيّة والمدنيّة والدينيّة للشعب الفلسطينيّ في وطنه التاريخيّ، وترفض أيّة محاولة لتقويض سيادته على أرضه أو تهجيره منها."

وسأكون ممتناً لو تكرّمتم بإبلاغ هذا الإعلان للاتّحاد الصهيوني.

المخلص...آرثر جيمس بلفور

وفي تلك اللحظة التاريخيّة البديلة، يضع بلفور قلمه جانباً، وينهض من مكتبه ويسير إلى النّافذة المطلّة على النّهر أمامه، وهو يفكّر كيف سيثير قراره غضب أصدقائه الصهاينة، لكنّه يدرك أنّ الضمير أهمّ من المصالح السياسيّة، فيهمس لنفسه وهو يحدّق في مياه النّهر المتدفّقة أمامه:

"لن أكون السّبب في تشريد شعب كامل، لن أحمّل ضميري دماء الأبرياء"...

وفي تلك الليلة، يكتب في مذكّراته الشخصيّة:

"اليوم اتّخذت أصعب قرار في حياتي السياسية، ورفضت أنْ أمنح شعباً أرض شعب آخر، لربّما منحت التاريخ أمراً عظيماً ليلعنني عليه ويكرهني بسببه، إلاّ أنّني أعطيت ضميري فرصة عظيمة ليبات مرتاحاً هانئاً دون أيّ قلق ممّا كنت سأفعله بشعب كامل"...

قرّاءنا الأعزّاء،

استيقظوا من أحلام العصر، ولا تتعمّقوا كثيراً فيما قرأتموه فوق، فهذا المشهد لم يحدث قطّ، ولن يحدث مثيله أبداً، فالرّسالة الحقيقيّة كانت عكس ذلك تماماً للأسف، ففي تلك الليلة الباردة من نوفمبر 1917، وُلِد أكبر ظلم استعماري في القرن العشرين، ظلم ما زال يتردّد صداه حتى اليوم في صرخات الأطفال في غزة، وفي دموع الأمهات في مخيمات اللجوء، وفي حنين المسنّين إلى قرى لم تعد موجودة على الخريطة، ففي قاعات أرشيف التاريخ، تكمن رسالة صغيرة من67 كلمة فقط غيّرت مجرى حياة ملايين البشر عبر أكثر من قرن، رسالة آرثر بلفور إلى اللورد روتشيلد في 2 نوفمبر 1917، التي باتت تُعرف بـ"وعد بلفور"، لم تكن مجرّد موقف سياسيّ، بل كانت نقطة تحوّل حضاريّة في تاريخ المنطقة والعالم، ونقطة إثارة للجدل، إذ قامت بريطانيا بموجبه بوهب أرض لا تملكها (فلسطين) لـشعب لا يسكنها (اليهود في العالم)، متجاهلة تماماً إرادة وحقوق الشعب العربيّ الفلسطينيّ الذي كان يقيم على أرضه منذ قرون، فهنا كان وعد بلفور نموذجاً صارخاً للوعود الاستعماريّة المتناقضة، ومن منطلق أنّ التاريخ ليس قدراً محتوماً، بل سلسلة من الخيارات الإنسانيّة، فإنّ كلّ خيار كان بإمكانه أنْ يكون مختلفاً، ولكنْ...

ماذا لو توقّف التاريخ لحظة؟ ماذا لو استيقظ ضمير بلفور قبل أنْ يوقّع على شهادة ميلاد قرن من المعاناة؟ ماذا لو استيقظ بلفور في صباح 3 نوفمبر 1917 وأدرك فداحة ما فعل ؟ ماذا لو اختار العدالة بدلاً من المصالح الاستعماريّة؟ ماذا لو قرر سحب وعده قبل أنْ يتحوّل إلى واقع دام؟

ماذا لو... عبارة كانت ستمنحنا مكاناً على خارطة زمن بديل، في تاريخ بديل، ومكان بديل، وفيه كانت فلسطين ستنمو كمجتمع طبيعيّ متجذّر، وكانت القرى الـ531 التي دُمرّت في النكبة ستزدهر، وأطفالها كانوا سيلعبون في حقول الزيتون نفسها التي لعب فيها آباؤهم وأجدادهم.

ولم تكن المسألة ستكون مجرّد بقاء جغرافي، بل استمراريّة حضاريّة عميقة، وكانت الحرف التقليدية ستُورّث من جيل إلى جيل، من صناعة الصابون النابلسي، والتطريز الفلسطينيّ، والفخار، وزراعة الحمضيّات اليافاوية، وكلّ هذا التراث الحيّ كان سيبقى متدفّقاً في عروق المجتمع، لا متحفاً في ذاكرة اللاجئين....

كان الأطفال الفلسطينيّون سيكبرون في بيوت أجدادهم، وكانت العائلات ستبقى متماسكة تتناقل القصص والحكايات حول مائدة العشاء في البيت الأصليّ، لا في خيام المخيّمات....

كانت كتب التاريخ ستُدرّس درساً مختلفاً تماماً، ولتطرّقت لكيفيّة تصحيح الخطأ السياسي قبل أنْ يتحولّ إلى كارثة إنسانيّة، ولكان الطلبة سيتعلّمون أنّ الحكماء هم الذين يعترفون بأخطائهم ويصحّحونها، لا الذين يتمادون فيها.

وكانت جملة "بَحْبي على إيديّ ورجليْ حَبْي، وبروّح على فلسطين"، - وهي كلمات للحاج اللاجئ عبد العزيز غنيم الذي بلغ عمره 86 عاماً، والتي قالها كجواب أثناء حوار له مع مذيع عندما سأله: لو استطعت العودة لفلسطين هل ستعود؟ - في عالمنا البديل، لن يكون لها وجود من البداية، لكونه لن يكون قد غادر أرضه قطّ، ولكان كلامه في لقاء وحوار عاديّ ليكون: هاي أرضي، وهاي بيتي، وهاي زيتونتي"...

ولكن اليوم، في العالم الواقعيّ لا البديل،

هنا يعيش ملايين اللاجئين الفلسطينيّين في دول الشتات، فهؤلاء ليسوا مجرّد أرقام، بل أرواح بشريّة حُرمت من أبسط الحقوق وهو حقّ العيش في وطنها، فتراهم في مخيمات لبنان والأردن وسوريا، هناك حيث يكبر الأطفال وهم يحلمون ببيوت لم يروها، وبأراضٍ لم يطؤوها، ويحفظون أسماء قرى مُدمّرة، ويرسمون خرائط لشوارع لم تعد موجودة، فهذا حرمان من الهويّة المكانيّة الأساسيّة لكلّ إنسان.

وهنا العائلة الفلسطينيّة، التي كانت نواة المجتمع التقليديّ، تمزقّت عبر القارات، فالجدّ في مخيم في لبنان، والابن في أمريكا، والحفيد في أستراليا، والعائلة التي كانت تجتمع كلّ يوم جمعة حول مائدة واحدة في البيت الأصلي، باتت تتواصل عبر تطبيقات رقميّة عبر المحيطات، وهذا التشتّت لم يدمّر الأسرة فحسب، بل دمّر آليّات نقل المعرفة التقليديّة، فالجدّة التي كانت تعلّم حفيدتها التطريز، والجدّ الذي كان يعلّم حفيده زراعة الزيتون، أطراف المعرفة الحقيقيّة الأصيلة انقطعت وتفرّقت وتشتّت.

في الوقت ذاته كان هناك أمر صعبٌ لم ينقطع تواجده بين الأجيال، وتناقلوه جيلاً بعد جيل، ألا وهو الصدمة النفسيّة الجماعيّة، التي انتقلت بين الأطفال والأحفاد، فنراهم حملوا النّكبة في لاوعيهم وحملوا ذاكرة الفقدان والتشريد، حتّى لو لم يعيشوا التجربة بأنفسهم، ففي المجتمعات الفلسطينيّة، تظهر أعراض هذه الصدمة في القلق الوجوديّ المستمرّ، والشعور بفقدان الأمان، والتعلّق برموز الهويّة، وهذا ليس من منطلق الضّعف، بل من منطلق استجابة طبيعيّة لظرف غير طبيعيّ.

وهنا يعيش الفلسطينيّ الشتات، ويحيا حالة انتماء معلّق، فلا هو مواطن كامل في البلد الذي يعيش فيه، ولا هو قادر على العودة إلى البلد الذي ينتمي إليه، وهذا الانتماء المعلّق يخلق أزمة هويّة عميقة، خاصّة عند الشباب، فمن هم إذاً؟ فلسطينيون لم يروا فلسطين؟ أم مواطنون من الدرجة الثانية في بلدان الإقامة؟

فواقع الأمر أنّ القضية الفلسطينيّة قضية إنسانيّة عالميّة، تعلّمنا أنّ الظلم في أيّ مكان هو تهديد للعدالة في كلّ مكان، لذلك فإنّ المدارس في العالم العربيّ والإسلاميّ تحتاج إلى تعليم الأطفال التّضامن الإنسانيّ الفعّال، لا مجرّد الشعارات العاطفيّة، وفي الغرب، تحتاج المدارس إلى تعليم الأطفال المسؤولية التاريخيّة عن قرارات حكوماتهم، وكيف أنّ هذه القرارات أثّرت في حياة طفل في غزة أو في مخيم عين الحلوة.

ولكنْ، ورغم مرور أكثر من قرن على وعد بلفور، فالحلّ ما زال ممكناً، والشعوب يمكنها أنْ تتعلّم التعايش إذا توفّرت الإرادة السياسية والعدالة، فالمطلوب اليوم شجاعة سياسيّة مماثلة لتلك التي كان يحتاجها بلفور لسحب وعده، وشجاعة الاعتراف بالخطأ، وشجاعة تصحيح المسار، وشجاعة بناء مستقبل عادل للجميع.

ففي الجامعات الغربيّة، يقف الطلبة مؤيّدين للعدالة الفلسطينيّة، وفي الشوارع البريطانيّة، يتظاهر الآلاف مطالبين بـالاعتراف بدولة فلسطين، وفي وسائل الإعلام، بدأت أصوات عدّة تنتقد الرواية الإسرائيليّة الأحاديّة، فهذه هي بذور التغيير المنشود، فالجيل الجديد ينظر إلى القضية بعيون أكثر إنصافاً، ويرون الظلم كما هو ظلم، دون النظر لهوية الظالم أو المظلوم....

ولكن ماذا لو ...

فماذا لو عدنا في الزمن للحظة كتابة بلفور لرسالته في 1917، وأخبرناه بما أحدثته كلماته في المستقبل..

لربّما لو سَمِعَنَا ونحن نروي له ما جرى بحال شعب بأكمله من تهجير وتجويع وقتل وتنكيل، لما كان سيكمل كتابتها.. وما كان سيتخيّل أنّها ستكون شاهد قبر على قرن كامل من المعاناة الإنسانيّة..

وماذا لو أخبرناه أنّ تبعات ما كتبه جعلت 157 دولة في العالم بأكمله تعترف بدولة فلسطين رغم أنف إسرائيل، وتنادي بشعارات مؤيدة تهزّ أركان الدبلوماسيّة العالميّة هزّاً وتؤزّهم أزّاً...

بل وماذا لو أخبرناه أنّ المملكة المتحدة – دولته ذات نفسها – توّجت هذا الاعتراف التاريخيّ، والذي وصفه المراقبون بأنّه تكفير عمليّ عن وعد بلفور، بينما في المقابل، تغرق إسرائيل في عزلة دوليّة لم تعرفها من قبل، لتكتمل بذلك مفارقة القدر...

نعم فقد انقلب السحر على السّاحر، والتاريخ لم ينتهِ بعد...والكلمات التي كُتبت يمكن أنْ تُمحى بكلمات أخرى...

فالمطلوب اليوم وعد جديد، " وعد اللّه " الذي يعكسه قوله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42]

وعد بالعدالة، وعد بالمساواة، وعد بحقّ الشعوب في تقرير مصيرها، ووعد يصحّح خطأ الماضي، ويبني مستقبلاً يستحقّه كلّ الأطفال...

فماذا لو سحب بلفور وعده؟

وماذا لو أدركنا أنّه لم يفت الأوان بعد لسحب آثار ذلك الوعد؟